نظام اللغة وسلامة القول في منظور الجنس الروائي

أ.د. صفاء الدين أحمد فاضل

&

أ.م.د. محمد عباس جاسم

الجامعة العراقية - كلية الآداب

مستخلص

لغة الأدب تمثل الأداة والعبقرية في الوقت نفسه، وهي طاقة بشرية يستعملها الروائي في تعميق الرؤية والمقصدية والجمالية، يتضح أن اللغة الروائية مكون بنائي هام في الجنس الروائي، كما أكد النقاد سحرها الخالق في النص السردي ووظيفتها والتفنن بصيغها، ويبدو المحاولات اللغوية قائمة على بناء النص واثراء الجانب التركيبي لتضمن سلامة القول، ولا شك في افتراضات وامكانيات وقدرات نظام اللغة المتمثل بالعلامات الدالة والتجسيدات المختلفة في انتاج الواقع وأخص منه الاجتماعي وغيره.

تساؤلات عدة طرحها النظام اللغوي في المتن الروائي منها على سبيل المثال ما الوعي المقصود الذي يحدد النص من حيث آلية الاشتغال اللساني للفعل القولي؟ أم ان القضية مجرد استشراف يتوقع القيم دون وعي خاصية الانسجام ما بين النص وثقافته ؟ وما بين اللغة وانسجام اشاراتها المجسدة للصخب الابداعي داخل ذلك المتن ؟ نحن إزاء تجسيد لنظام لغة ينطلق من تشعبات فاعلة وأهمها ضبط النص وسلامة القول وهذا يعطي شكل القول عملا لا يتجسد على نص مجرد وإنما نص فاعل مكتمل الانموذج أن صح التعبير حاويا لإبداع أدبي من ناحية الثقافة وفي الوقت نفسه يحيلنا إلى نظام لغوي محبوك وقول يشكل انطلاقة المنظور الخاص وتعالقاته التي تتحرك على وفق فضاءات أساسية ولعل من أهمها التأكيد على جوانب القدرة الانتاجية للمبدع وكيفية اضافتها إلى واقع أشمل وأعم مدعم بعملية التأويل وهذا ما يجعلنا نركن إلى قضية باحثة وعميقة عن خصوصية هذا الجنس ولا سيما اخراج لغة النص الروائي من خطابها الطبيعي الذي لا يحقق للنص متانته إلى نظام لغوي فاعل يتسم بالجدة مما يجعل الوعي باللغة وانظمتها الاشارية شرطا مهما في خطاب ذلك النص أو أيا كان لنصل الى المنطقة التي تعمد بالدرجة الأساس على شكل ذلك القول المبني على وفق عملية التوليد الدلالي المركونة الى حقول معرفية والتي لها صلة مباشرة بالحقول اللسانية من جهة وانظمة الفعل القولي واشارية الانظمة من الجهة المقابلة لها وعليه نتمكن من رصد خطورة ذلك القول إن كان مشوبا بالخطأ والهلهلة البنائية التي تعمد إلى تفكيك كل ما هو محبك ومسبوك وبالنظر إلى أهمية هذا الموضوع اثرت الوقوف على هيمنة ذلك الجنس رابطا ذلك بنظام اللغة وما له من دور مهيمن في تحبير هذا الجنس الأدبي وصقله من الخطأ الذي يؤثر فيه . ليشكل النص حضوره المتواصل في اللغة وصلته بها كمفهوم دلالي ولغوي بالدرجة الأساس، وعليه قسم البحث إلى قسمين:

الأول: (الخطأ اللغوي وأثره على بلاغة المتن)

الثاني: (تأثير اللغة وفعل التحبيك على قدرة الانتاج)

ولا تخلو الدراسة من خاتمة وأهم النتائج وقائمة المصادر والمراجع التي ارفدت فكرة الدراسة .

المقدمة

لغة الأدب تمثل الأداة والعبقرية في الوقت نفسه، وهي طاقة بشرية يستعملها الروائي في تعميق الرؤية والمقصدية والجمالية، يتضح أن اللغة الروائية مكون بنائي هام في الجنس الروائي، كما أكد النقاد سحرها الخالق في النص السردي ووظيفتها والتفنن بصيغها، ويبدو المحاولات اللغوية قائمة على بناء النص واثراء الجانب التركيبي لتضمن سلامة القول، ولا شك في افتراضات وامكانيات وقدرات نظام اللغة المتمثل بالعلامات الدالة والتجسيدات المختلفة في انتاج الواقع وأخص منه الاجتماعي وغيره.

تساؤلات عدة طرحها النظام اللغوي في المتن الروائي منها على سبيل المثال ما الوعي المقصود الذي يحدد النص من حيث آلية الاشتغال اللساني للفعل القولي؟ أم ان القضية مجرد استشراف يتوقع القيم دون وعي خاصية الانسجام ما بين النص وثقافته ؟ وما بين اللغة وانسجام اشاراتها المجسدة للصخب الابداعي داخل ذلك المتن ؟ نحن إزاء تجسيد لنظام لغة ينطلق من تشعبات فاعلة وأهمها ضبط النص وسلامة القول وهذا يعطي شكل القول عملا لا يتجسد على نص مجرد وإنما نص فاعل مكتمل الانموذج أن صح التعبير حاويا لإبداع أدبي من ناحية الثقافة وفي الوقت نفسه يحيلنا إلى نظام لغوي محبوك وقول يشكل انطلاقة المنظور الخاص وتعالقاته التي تتحرك على وفق فضاءات أساسية ولعل من أهمها التأكيد على جوانب القدرة الانتاجية للمبدع وكيفية اضافتها إلى واقع أشمل وأعم مدعم بعملية التأويل وهذا ما يجعلنا نركن إلى قضية باحثة وعميقة عن خصوصية هذا الجنس ولا سيما اخراج لغة النص الروائي من خطابها الطبيعي الذي لا يحقق للنص متانته إلى نظام لغوي فاعل يتسم بالجدة مما يجعل الوعي باللغة وانظمتها الاشارية شرطا مهما في خطاب ذلك النص أو أيا كان لنصل الى المنطقة التي تعمد بالدرجة الأساس على شكل ذلك القول المبني على وفق عملية التوليد الدلالي المركونة الى حقول معرفية والتي لها صلة مباشرة بالحقول اللسانية من جهة وانظمة الفعل القولي واشارية الانظمة من الجهة المقابلة لها وعليه نتمكن من رصد خطورة ذلك القول إن كان مشوبا بالخطأ والهلهلة البنائية التي تعمد إلى تفكيك كل ما هو محبك ومسبوك وبالنظر إلى أهمية هذا الموضوع اثرت الوقوف على هيمنة ذلك الجنس رابطا ذلك بنظام اللغة وما له من دور مهيمن

في تحبير هذا الجنس الأدبي وصقله من الخطأ الذي يؤثر فيه. ليشكل النص حضوره المتواصل في اللغة وصلته بها كمفهوم دلالي ولغوي بالدرجة الأساس، وعليه قسم البحث إلى قسمين:

الأول: (الخطأ اللغوي وأثره على بلاغة المتن)

الثاني: (تأثير اللغة وفعل التحبيك على قدرة الانتاج)

ولا تخلو الدراسة من خاتمة وأهم النتائج وقائمة المصادر والمراجع التي ارفدت فكرة الدراسة.

المحور الأول

الخطأ اللغوي وأثره على بلاغة المتن:

النص أيا كان هو نسيج قائم على وفق علاقات مترابطة تمنح النص قوة ذات اكتناز دلالي بمعان عدة، يتم إنتاجها من خلال ذات النص، ويتجلى أيضاً من خلال الكاتب والقارئ، فالكاتب ينتج نصه ضمن بنيات نصية، والقارئ يتلقى النص على دلالات أعمق وأكبر حيث يستنبط من البنيات ويحول القراءة إلى نوع من التأويل، لأن النص هو عملية انتاج وهو متحرك دائماً،[١] إذ انه ليس متمركزاً ولا مغلقاً، وهو أكبر من مجرد قول أو خطاب ولا سيما أن النص الروائي نص يحتوي على نظام معين وبنية تتسم بالشمول والسعة وهذا ما يمنحه وظائف عدة منها:

- الوظيفة التجريبية والتي تبرز من المضمون وتتعلق بتمثيل التجربة التي يعيشها المتكلم في سياق ثقافي واجتماعي معين،
- الوظيفة التواصلية فهي تتصل بالبعد الاجتماعي لوظائف اللغة، وفيها يتم تحديد زاوية المتكلم ووضعه ورمزية قوله في علاقته مع المخاطب في حين تتجه الوظيفة النصية إلى الأصول التي تتركب منها اللغة لإبداع النص كوحدة دلالية.[٢]

إن النص يستمد معناه وبنيته الدلالية من رؤية العالم التي يعبر عنها، لأن العلاقة بين العمل الأدبي ورؤية العالم هي شكل من اشكال الحياة الاجتماعية فلا يمكن فهمه إلا إذا وضعناه امام (الاجتماعي والتاريخي).

فالجنس الروائي بنية دلالية كبرى لها تعالقات مع كل ما هو يمت بصلة إلى وعي المجتمع والمحيط، فكل ابداع أدبي هو انعكاس لوعي جمعي يجسد الركيزة الباحثة في السياق

التاريخي والاجتماعي والنظر إليه من خلال عنصر الشمولية والاحاطة والسبك والجودة، فضلا عن ذلك أن الرواية فضاء واسع وهذا ما أكده غولدمان حين قال إنها تشكل على وفق ركائز ايديولوجية فتظهر لنا نقلاً للحياة اليومية بفرديتها وجماعيتها، وهو ليس مجرد انعكاساًلوعي فعلي حقيقي فحسب، بل هو انعكاس لوعي ممكن، ذلك أن كل فئة اجتماعية تبني وعيها وبنياتها الذهنية بممارستها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية داخل المجتمع في كليته، وليس عناك وجود للوعي الجمعي خارج وعي الافراد والجماعات،[٣] وهذا يدلل على أن الفضاء الروائي هو فضاء حاوي لبؤر ثقافية مستمدة من خلال:

- البيئة / المحيط
- العامل الفاعل / الافراد والجماعات
- التاريخ
- الواقع
- الفلسفة
- ذات المؤلف المنتج (المبدع)
- الجمهور / الناقد

اما من حيث البناء فهي تعكس إحساساً عميقاً بالقدرة على فهم الظواهر والربط ما بينها وتفسيرها وتحليلها، فالرواية تهتم بالموفق العرضي والطارئ والسطحي والهامشي، بل تهتم بالثوابت والبواطن، أي الباطن الجوهري، ولاسيما انها تتغلغل إلى جذور الظواهر وتصور لعلاقات من الداخل، وهذ الوظيفة تحدد ماهيتها لا العكس، كما أن هذه الصفات النوعية تنعكس على بنائها وأسلوبها وتقنياتها، وطبيعة التفاعل بين عناصرها ومحيطها، وهذه التقنيات ما هي إلا تلبية لرؤيتها ووظيفتها، فتؤدي الأساليب السردية داخلها دوياً رئيسياً في توازن البنية الروائية برمتها، لتختفي هنا ظاهرة التداخلات المباشرة والتعليقات المضمرة والحشو الذي لا مسوغ له، ويختفي الكاتب لتقديم مادته الروائية بموضوعية فنية لتحقيق التأثير والإقناع الفني إلى جانب التأثير في القارئ عن طريق تقديم الحقائق النوعية بصورة مقنعة،[٤] والتركيز إلى تجسيد مبدأ مهم من جماليات التلقي والايهام بواقعية عالم الرواية وتصوير نثريات الحياة الداخلة في إطار الرواية ومتنها.

وإن الرواية على كونها هي أحد اجناس الأدب ومساحة اشتغالها تكون أوسع، إذن إنها تضع النقد الأدبي في التجربة الراهنة أمام تحديات كثيرة ولعل أهم تحد يتمثل في ضرورة النقد لسؤال اشتغاله ووضعيته الفلسفية ومراجعته لخلفيته النظرية في علاقة مع ما تقترحه تجربة النص السردي العربي الراهن من طرق مختلفة في صوغ التخييل وبناء السرد، ثم مدى قدرته على الانطلاق من مشهد التحولات التي تعرفها الرواية، وصياغة جديدة لمنطق التلقي خارج ثقافة الاستقبال الروائي المألوفة، كما تختبر الرواية بتجلياتها الراهنة حدود النقد وامكانياته المعرفية والفلسفية والمنهجية في التفكير في راهنية السرد، بدلاً من اعتماد المألوف وإعادة تسويقه،[٥] وإنتاج خطاب يستثمر النصوص وإعادة انتاجها من جديد على وفق ثقافة متذوقة لكل ما هو ايديولوجي نافع يحقق متعة فنية وجمالية خصبة طارحة لإنتاج واعي محمل بالأوضاع الاجتماعية والتاريخية ذات الذاكرة الخصبة.

المحور الثاني

تأثير اللغة وفعل التحبيك على قدرة الانتاج:

النص الروائي – النص الأدبي – يجب أن يمتاز بلغة عالية وسلامة لغوية محبوكة تبتعد عن الركاكة والضعف ما يجعل منه نصاً ذا لغة اكاديمية عالية، فيترفع النص عن عوامل الوقوع في الخطأ فبحسب الدراسات أن وقوع الخطأ يرجع إلى عدة عوامل لعل منها:

- وجود اللهجات المتعددة واثرها في النظم البنائي للنص.
- ازدواجية الفصحى والعامية في العربية فضلاً عن توهم أصالة الحرف.
- التقدير الشكلي (التقديم والتأخير)، واخطاء يُفسرها العزوف عن تقصير أبنية الكلم واختزالها مثل عدم حذف حرف العلة من اخر الفعل المضارع المعتل الاخر مجزوماً، واخطاء الرسم الناجمة عن محاكاة المنطوق، ويعد عدم الاستقرار الانفعالي والعقلي والجسدي من ابرز عوامل الوقوع في الأخطاء، وينبغي أن ندرك أن عملية حصر الاخطاء ليست بالسهلة، لأنها تتطلب جملة من المعوقات حتى تصل إلى صفة الشيوع في الاخطاء، ولعل من أهمها: أن تكون هذه الاخطاء متكررة في كتابات الخاصة والعامة، وأن تشكل عبئاً على افراد المجتمع ليتصدى لها نفر من الباحثين في الدراسة والتحليل،[٦] وصولاً إلى نتائج تقنع القائمين على العملية الانتاجية والابداعية لأي نص كان.

وقد يمتاز النص الروائي بسلامة وحبك لا يشعر المتلقي بوجود فجوة أو انقطاع مُخل في النص كما في نص محمد زفزاف: **(إن العالم يبدو لي في بعض الاحيان مهترئاً، جد مهترئ وأشعر بدخان زاكم ينبت في صدري وينطلق إلى خياشيمي ببرود، ثم إلى الفضاء مختلطاً بظلال الأشياء وبالفراغ الكابوسي الثقيل، كان متمدداً في العياء، وشعر للتو أنه في حاجة إلى تسلية على الأقل. كان شعوره بالاغتراب كبيراً. هذه الجدران الأربعة التي تتضمن قدراً من الهواء ليس فيها هواء.**

كل شيء جاف ولزج

حتى أوراق الكتب الراقدة باحترام

كجذوة حب ميت

إن العالم مهترئ،

وقديم،

بل عادي جداً

(وما أحوجه إلى تغيير!)

لو أنني أقفز هذه اللحظة ككرة مطاطية وأصفع الزمان، فأغير وجهته، أو أجعله يقف لحظة ليجيب عن هذا السؤال:

(لماذا هذه الحركة تتضمن العفونة والرتابة والتكرار؟)

إنني مقيد، وأشعر أن العالم مقيد كذلك وهذا الزمان وهذه الجدران الأربعة، وهذه الأوراق الجامعة...

ترى أين توجد مفاتيح هذه القيود جمعاء؟

ركل كتاباً بقدمه كان قد تعب من قراءته، ثم نهض مفككاً. (الحكيم إيزوب وسقراط.. لا شيء قد تغير. إن القيم هي الأخرى قد اهترأت باهتراء العالم) [٧]

نلحظ هنا إن النص قائم على وفق ضبط لهيكليته وبناءه نحوياً وصرفياً، ولاسيما أن النحو هو صناعة، والمقصود بالصناعة العلم الحاصل بالتمرن أي أنه قواعد مقررة وأدلة وجد العالم بها أم لا، وهذا ما جعل المبدع قاصداً له لأنه ضبط دقيق للغة والبناء،[٨] واللغة هي التي تحكم وتضبط النص لأنها من أكبر الأنظمة إذ تتشكل من انظمة أخرى فرعية مثل:

(- نظام الأصوات

- نظام المقاطع

- نظام النبر

- نظام الصيغ

- نظام الاشتقاق

- نظام النحو

- نظام اقسام الكلم). [٩]

وجميعها متصلة ببعض كمثل الجسم الإنساني الذي يمثل نظاماً حيوياً ذا وظيفة كبرى هي (تحقيق الحياة) ولكنه مؤلف من أنظمة فرعية تؤدي الوظيفة الكلية لهيكلية البناء الجسمي، كذلك الأمر بالنسبة للبناء النصي الروائي الذي يشتمل على شكل مضمون يتألف من:

- وظائف لغوية

- نزعات نفسية

- رموز وشفرات

- ومضات جمالية

وهذا ما يجعل النص الروائي لا يتصف بالجمال إلا إذا تحققت له الصحة، ولا يكون نسيجه محبوك إلا إذا تتناسب عناصره وضبطت لغته، وهذا ما يجعلنا ننتبه إلى قضية الدراسات اللغوية في حقل الأدب وما يعطي من جمالية للنص المضبوط لغوياً بطريقة نظام تتكامل فيه جميع عناصره تكاملاً يجعل البنية للنص الروائي جامعة مانعة لا تفتقر إلى شيء من خارجها لتستعين به على أداء وظيفتها الكبرى وهي اكتمال النص في جميع نواحيه، فيبرز محملاً بـــ:

- جمالية المعنى

- قوة السبك

- شدة الترابط وعدم الانقطاع في المعنى

- غزارة الدلالة

- القرائن وعلاقاتها

وجميع هذه الأمور تساهم بشكل فاعل ومؤثر على نتائج النص سواء أكان روائياً أو قصصياً أو أي نص أخر يعتمد على لغة مضبوطة ومنهج واعي وبناء رصين.

وفي مشهد آخر يجسد محمد زفزاف سلامة لغوية قبل أن تكون مهارية إذ يقول: **(الشعور العام الذي يمسكنا جميعاً كخيوط الكراكيز. يغلف حقيقتنا. إن الموت شيء طبيعي. أن أقتلك أو تقتلني شيء طبيعي. نحن جميعاً سنموت. فماذا إذن إثارة هذا الغبن الذي يسود لا حقيقتنا؟**

كانت أفكار كثيرة تضطرب في رأسه. الرجل مات. الآخر ألقي القبض عليه. وبعض لحظات سيموت. لحظات تطول أو تقصر. والانتحار يحضر في لحظة الموت. أما لم أعش تجربة موت. العالم لا يكتشف حقيقته لأنه لم يعش فرديته. طغيان الشعور العام يتمادى. كان ذاهباً إلى سالم مليء الرأس بكتل إسفنجية من الأفكار. يضغط بعضها، فيخرج منها الماء المكر. كانت يداه في جيبه، والجو ساخناً هذه الظهيرة. نفير السيارات يمتد، والجدران تمتد، والسماء تمتد في اللانهاية. وكل شيء صاغب والرجل مات وآخر سيموت وربما هناك من يموت الآن والآن والآن والعالم لا يزال يسير. البعض يضحكون وآخرون يبكون. وسالم ربما كان مستلقياً الآن على سريره ينظر إلى السقف، جالساً يتأمل وجه السماء خلف النافذة، أو يرسم لوحة يصب فيها مأساة أمه المسلولة وأبيه الزنديق. والعالم لا يأبه لأي أحد. الحركة تحتد وتلتهم باقي الحركات الأخرى). [١٠]

ينطلق النص من فكرة السلامة اللغوية للمتن الروائي، الذي يجعل من النص بؤرة باثة لكل جديد وباحث في فضاء الانتاج الأدبي، والنص هنا نص كاشف عن عمق تلك القضية التي تكمن في لغته وأسلوبه وطريقته وامكانية الغاية الباثة للمقصدية.

فعلى الرغم من مزاحمة النص لمجموعة من الأطر التي تمس صميم الواقع إلى أن الغاية هنا، هي غاية بحيثة كامنة في عمق لغة النص ودلالاته، لأن النص الجيد هو نص قابل للمطاوعة وانتاج الدلالة ولاسيما أنه أساس كل حراك ابداعي، وأنه (النواة المشعة لجملة من المحاور التي تنبع عنه، لما يتسم به من طبيعة دقيقة... لحقل المساجلات النقدية). [١١]

وهذا الأمر ما يجعل المتتبع في حالة البحث الدائم عن كل ما هو دقيق وعميق، ويجعل من الطرف الآخر (النص) خاضع للعديد من العمليات النقدية الباحثة في لغته ودلالاته وشفراته التي يعمد إليها، ويخفي تحت ظلالها مقاصده ومراميه.

مما تقدم نلخص أن النص هو هيكلية وبناء يتطلب عمق ووعي وادراك ولاسيما أن كان النص روائيا يتطلب عملية فهم وضبط بجميع الاحداث التي ينطلق منها لتبلور نص غني بعمق الدلالات التي تسمح للمتلقي أن يسبح في فضاء ذلك النص من أجل استخراج الغاية المنشودة.

إن سلامة النص نابعة بالدرجة الأساس من سلامة اللغة نفسها، فإذا كانت اللغة سليمة كان البناء سليم وعكسه صحيح، وهذه القضية تجعل المبدع يتحوط بكل الوسائل والممكنات المستعملة التي يحاول من خلالها أن يبرز لنا نص أدبي ذو نتاج ولغة عالية سليمة من الخطأ الذي تضعف البناء وتضيع الدلالة.

هوامش البحث ومصادره:

(١) ينظر: فضاء النص الروائي مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سلمان: محمد عزام، دار الحوراء للنشر والتوزيع، ط١، سوريا، ١٩٩٦م: ١١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٦.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٢.

(٤) ينظر: انماط الرواية العربية الجديدة: د. شكري عزيز الماضي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٨م: ١١-١٢.

(٥) ينظر: نحو الوعي بتحولات السرد الروائي العربي: د. زهور كرام، منشورات الدوحة، ط١، كتارا، قطر، ٢٠١٧م: ٢١.

(٦) ينظر: الاخطاء النحوية والصرفية الاملائية الشائعة عند تلامذة الصفوف الأساسية العليا وطرق معالجتها: فهد خليل عبد الله زايد، ٢٠٠٧م: ٩٢.

(٧) الأعمال الروائية الكاملة، محمد زفزاف، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٧م: ١١٩.

(٨) ينظر: مقالات في اللغة والأدب: تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٦م: ٤٣٨/١.

(٩) المصدر نفسه: ٣٤٥.

(١٠) الأعمال الروائية الكاملة: ١٦٨.

(١١) نظرية التلقي أصول وتطبيقات: د. بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠١م: ١٢.